المقتطف

الجزء الثامن من السنة العاشرة

ايار (مايو) ١٨٨٦ = الموافق ٢٦ رجب ١٣٠٣

شذور الابريز في نوابغ العرب والانكليز

ابو العلاء المعرّي وجون ملتن الانكليزي

ابو العلاء المعري * هو احمد ابن عبد الله التنوخي من اهل معرة النعمان . ولد بالمعرة يوم الجمعة لثلاث بقين من ربيع الاول سنة ٣٦٣ هجرية الموافقة لسنة ٩٧٤ مسيحية . وجُدّر في السنة الثالثة من عمره فعمي من الجدري ولكن لم يمنعه العمى عن طلب العلم والتحصيل فقرأ النحو واللغة على ابيه بالمعرّة وعلى محمد بن عبد الله ابن سعد النحوي بحلب . ودخل بغداد سنة ٣٩٨ وسنة ٣٩٩ واقام بها سنة وسبعة اشهر ثم رجع الى المعرة ولزم منزله وشرع في التصنيف واخذ عنه الناس وسار اليه الطلبة من الآفاق وكاتبه العلماء والوزراء واهل الاقدار وسمّى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله ولذهاب عينيه . وقضى مدة خمس واربعين سنة لا يأكل اللحم اقتداء بعرافة الهند والى ذلك اشار عليّ بن هام حين رثاه فقال

ان كنتَ لم ترقِ الدماء زهادةً ... فلقد ارقتَ اليومَ من عيني دما

وقيل لنبيّه رجل فقال له لمَ لم تاكل اللحم فقال ارحمُ الحيوان قال فما تقول في السباع التي لا طعام لها الّا لحوم الحيوان فان كان لذلك خالق فانت ارأف منه وان كانت الطبائع المحدثة لذلك فما انت باحذق منها ولا اتقن فسكت ابو العلاء عن الجواب عيًّا

ومن الغريب ان هذا المذهب البرهمي قد انتشر الآن شيوعه في اوربا وكثر انصارهُ والذين يحاولون تأييدهُ بالادلة العلمية . وهو من جملة المذاهب المضعفة لنوع الانسان التي نشأت في بلاد الهند فحطّت الشعب الهندي من ذرى المجد الى حضيض الذل

وقال ابو العلاء الشعر وهو ابن اثنتي عشرة سنة وصنّف كتبًا كثيرة في الادب منها لزوم ما لا يلزم وهو ديوان كبير جمع فيه الروميات وصدّرهُ بديباجة ضافية الذيل في شرح الدواني . واما نا الآن نحنُ منهُ فيها ٦٦ صفحة . ومنها سقط الزند وفيهِ مختب قصائدهِ . وضوء السقط وهو ديوان صغير فيهِ القصائد التي نظمها في وصف الدرع مذاهر المشهور ولكن ابن خلكان قال ان ضوء السقط اسم الشرح الذي وضعهُ ابو العلاء على سقط الزند وقال ايضًا ويبلغني ان لهُ كتابًا سماهُ الايك والغصون وهو المعروف بالمعزة والردف يقارب مئة جزء في الادب . ولهُ غير ذلك كتاب اللامع العزيزي في شرح شعر المتنبي واختصر ديوان ابي تمام وشرحهُ وسماهُ ذكرى حبيب وديوان البحتري وسماهُ عبث الوليد وديوان المتنبي وسماهُ معجز احمد وتكلم على غريب اشعارهم وماخذهم من غيرهم وما أُخذ عليهم وتولّى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في اماكن لتخطئتهم ولما بلغ الى قول المتنبي

انا الذي نظرَ الاعمى الى ادبي وأسمعَتْ كلماتي من بهِ صممُ

قال كأنهُ نظر الي بلحظ الغيب

قال المحبي الشاعر لبيب بعبرة النعمان عجبًا من العجب رأيتُ اعمى شاعرًا ظريفًا يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الهزل والجد يكنى ابا العلاء وسمعتهُ يقول انا احمد الله على العمى كما يحمدهُ غيري على البصر

قيل ورحل ابو العلاء الى طرابلس وكان بها خزائن علم موقوفة فاخذ منها ما اخذ من العلم واجتاز بالملاذقية ونزل ديرًا كان بهِ راهب لهُ علم بالفلسفة فسمع كلامهُ فحصل لهُ شكوك فانهم في دينهِ وأخذ عليهِ قولهُ

فحكا وكان الضحكُ منا سفاهةً وحقٌ لسكان البسيطة ان يبكوا
نحطمنا الايام حتى كأننا زجاجٌ ولكن لا يعادُ لنا سبكُ

وحمل المؤاخذة انكارهُ بعث الاجساد لانكارهُ الخلود بدليل قولهِ

خُلق الناس للمعادِ فضلّت انهُ يحسبونهم للنفادِ
انما ينقلون من دارِ اعما لٍ الى دارِ شقوةٍ او رشادِ

وقيل بل في التوليف تناقض ولما كان في حيرة

وكان عجبًا في فرط الذكاء والحافظة وللناس حكايات كثيرة في عجائب ذكائهِ . ذكر نليفو ابو زكريا التبريزي انهُ كان قاعدًا في مسجدهِ بمعرة النعمان بين يدي ابي العلاء يقرأ شيئًا من تصانيفهِ . قال وكنتُ قد اقمتُ عندهُ سنين ولم ارَ احدًا من اهل بلدي فدخل المسجد بعض

جيرانا للصلاة فرأيته وعرفته وتغيرت من الفرح فقال لي ابو العلاء اني شيء اصابك فحكيت له اني رأيت جارًا لي بعد ان لم التقِ احدًا من اهل بلدي سنين فقال لي قم فكلمه فقمت وكلمته بالاذربيجانية شيئًا كثيرًا فلما رجعت قال لي اي لسان هذا قلت هذا لسان اذربيجان فقال لي ما عرفت اللسان ولا فهمته غير اني حفظت ما قلتما ثم اعاد عليّ اللفظ بعينه غير ان ينقص منه او يزيد عليه. وللناس حكايات أخرى مثل هذه وغالبها مستحيل

ومما يدل على شدة ذكائه وحرية افكاره انه حضر مرة في مجلس الشريف المرتضى فجرى ذكر ابي الطيب المتنبي فتنقصه الشريف المرتضى وعاب بعض اشعاره فقال ابو العلاء لو لم يكن له الا قوله "لك يا منازل في القلوب منازل" لكفاه. فغضب الشريف وامر بالمعري فأخرج من منزله فتعجب الحاضرون من ذلك فقال لهم الشريف انما ازداد هذا الاعمى غيظًا في تلك القصيدة

وإذا اتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بانّي كامل

وقيل غيره عبد الله الخوارزمي بالعمى فانشد مرتجلاً

قالوا العمى منظرٌ قبيحٌ ... قلت بفقدي لكم يهونُ

والله ما في الوجود شيء ... تأسى على فقده العيونُ

وتوفي يوم الجمعة في الثاني او الثالث من ربيع الاول سنة ٤٤٩ هجرية الموافقة سنة ١٠٥٨ مسيحية واوصى ان يكتب على قبره

هذا جناهُ ابي عليّ ... وما جنيت على احد

يريد انه لم يجانف ولدًا. واجتمع على قبره ثمانون شاعرًا ورثوه اطيب الرثاء من ذلك قول ابي الفتح المعرّي

العلم بعد ابي العلاء مضيعٌ ... والارض خالية الجوانب بلقعُ

أودى وقد ملأ البلاد غرائبًا ... تسري كما تسري النجوم الطلّعُ

ما كنت اعلم وهو يوضع في الثرى ... ان الثرى فيه الكواكب توضعُ

جبلٌ تضعضع وقد تزعزع ركنه ... ان الجبال الراسيات تزعزعُ

وعجبت ان تسع المعرة قبرهُ ... ويضيق بطن الارض عنه الاربعُ

جون ملتن الانكليزي * هو الشاعر الانكليزي صاحب الشعر المعنون "بالفردوس المفقود" من فحول شعراء الطبقة الاولى عند الافرنج ولد بمدينة لندرا لسنع خلون من كانون الثاني (جنيفر) سنة ١٦٠٨ وقرأ مبادئ العلوم في بيت ابيه ثم طلب في مدرسة كمبردج الجامعية وفي اثر

اشهر مدارس الانكليز ونظم فيها الشعر النفيس ولما من العمر خمس عشرة سنة . ولما اتمّ دروسه فيها وأُجيز له عاد الى بيت ابيه واقام فيه خمس سنوات واكبّ على درس كتب الادب القديمة والحديثة ونظم رواية شعرية اسمها كومس انتشرت في بلاد الانكليز واشتهر بها شهرة بعيدة واقبل الناس على قراءتها وتمثيلها حتى رسخت عباراتها في اذهانهم وصاروا يوردونها موارد الامثال وهم غير متنبهين الى مصدرها . ونظم ايضًا اربعًا من قصائده المشهورة وكلها مديجة بالعبارات البليغة والحكم البديعة التي أُجريت مجرى الامثال

ودخل باريز سنة ١٦٣٨ واقام بها مدة قصيرة ثم الى جنوا وبيزا وفلورنسا وروميه ولقي اشهر علماء العصر وتمراثو وجالسهم وباحثهم وناظرهم على عهود المحبة والولاء . وكان قد خالف معتقد الكنيسة اللاتينية الذي ولد فيه وشبّ عليه فرار غليليو الشهير وهو في سجن ديوان التفتيش وبث آراءه الدينية امام علماء ايطاليا ولم يخشَ فيها لومة لائم فلم تحط منزلته في عيونهم . ودخل مكتبة الفاتيكان الشهيرة واطّلع على ما فيها من كنوز الآداب وكان عازمًا ان يمرّ بصقلية وبلاد اليونان فبلغه خبر اضطراب بلاده وقرب حدوث الثورة فيها فكرّ راجعًا وهو يقول لا يليق بي ان امكث في مقام الأمن واهل وطني يجاهدون في طلب الحرية

فعاد الى بلاده واشهر قلمه ضد الملك وانصاره الذين كانوا يضطهدون الشيعة التي تبعها بل ضد كل خدّامة الدين المتطرفين في التعصّب . ثم جعل يحامي عن حرية المطبعة والافكار بمقالة الابطال مستشهدًا بغليليو الذي كان اسير التعصب على ما قال

ولما بلغ الخامسة والثلاثين تزوّج بابنة رجل غني من حزب الملك . والظاهر ان اباها ازوجه بها لكي يحتمي به اذا انكسر حزبه فلما تغلب هجرته وعادت الى بيت ابيها فحاول ارجاعها اليه فلم ترجع فالّف كتابًا في الطلاق افضى به الى مناظرات كثيرة اشغلته زمانًا طويلاً . ثم انكسر حزب الملك فعادت زوجته اليه من نفسها وترامت على قدميه فعفا عنها وحنى ابيها واخوتها في داره

ولما ثبتت الجمهورية في بلاد الانكليز عينته كاتبًا لها في اللغة اللاتينية فالّف كتابًا سماه "ملوك الملوك والحكام" قصد به تسكين الخواطر التي اضطربت في ذلك الحين

ثم قام كارلس ابن الملك الذي خلعه الانكليز وفظعوا وتشكى على الشعب الانكليزي لدى محاكم اوربا واكتسب عالمًا اسمه سلماسيوس من علماء مدرسة ليدن الجامعة لجهاد عنه فالّف هذا كتابًا في الدفاع عن كارلس فردّ عليه ملتن بكتاب نفيس سماه "دفاع الانكليز" فهاجت الكتاب بين خواطر اوربا كلها وسقطت به حجة كارلس وسلماسيوس حتى ان سلماسيوس مات كمدًا وهو يحاول الرد عليه . وهرع سفراء الدول الى بيت ملتن بالملابس الرسمية يعظمون قدره على هذه

الكتاب التعس ورفع له العلماء الوية الثناء في كل نادٍ . وحينما كان يؤلف انذرهُ الاطباء بالعمى ان لم يكفَّ عن الدرس والتأليف فقال "ان كثيرين يتداعون الخير الصغير بالشر الكبير اما انا فحسبي ان اتباع الخير الكبير بالشر الصغير" حاسبًا عمى عينيهِ شرًّا صغيرًا في جنب الخير الكبير الذي هو خير الوطن . فعمي من مواصلة السهر والدرس ولكنهُ بقي في مقصورهِ يملي على الكتّاب المكاتبات المهمة التي جرت بين الحكومة الجمهورية وسائر الممالك الاجنبية ولم يكن غيرهُ في بلاد الانكليز قادرًا على الانشاء باللغة اللاتينية

وشرع حينئذٍ في ثلاثة تآليف كبيرة الاول قاموس في اللغة اللاتينية والانكليزية والثاني تاريخ عام لبلاد الانكليز والثالث شعرهُ المشهور المسمّى "بارادَيس لوست" اي الفردوس المفقود . ثم انتقل عرش الجمهورية وتسنّمهُ كارلس الثاني كرسي الملك وقتل اكثر زعماء الجمهورية فاختبأ ملتن في بيت واحد من اصدقائهِ واشاع اصدقاؤهُ انهُ مات وحملوا جنازةً مصنوعة وساروا بها الى القبر ردفوها فيهِ وهو حيّ يرزق . ثم بلغ الملك انهُ لم يزل حيًّا فضحك من هذه الحيلة . وكان ملتن قد اصطنع كثيرين من احزاب الملك بكرمهِ وشهامتهِ عندما كانت الجمهورية سائدة فتوسط هؤلاء عند الملك امرهُ فنجا من القتل ولكن كتبهُ التي حامى بها عن حرية الانكليز لم تنجُ فحُرقت علانيةً

وفي هذه الاثناء نظم قصيدة الفردوس المفقود بقي على نظمها خمس سنوات اي من قتل سقوط الجمهورية بستين الى بعد رجوع الملكية بثلاث سنوات . وهي طويلة جدًّا فيها عشرة آلاف وخمس مئة واربعة وستون سطرًا من نوع الشعر الذي يحفظ فيهِ الوزن لا القافية . ونظم اكثرها في فصول الشتاء فكان ينوم في الصباح ويملي على زوجتهِ العشرين والثلاثين بيتًا دفعة واحدة فتكتبها لهُ . فلما انتهى اراها لاحد تلامذتهِ فقال لهُ تكلمت كثيرًا على فقد الفردوس ولم تتكلم على ردهِ فلم يمضِ زمان طويل حتى نظم قصيدة ثانية في رد الفردوس وسلمها لتلميذهِ هذا وقال لهُ اني مديون لك بها ولما طبع "الفردوس المفقود" حمل السرجون ثمن الكراس الاول منهُ وهو مبلول من المطبعة ودخل بهِ مجلس العموم وقال هاكم ابلغ شعر نظمهُ البشر في كل زمان ومكان

وزارهُ اخو الملك وعزّاهُ بنفسهِ وقال لهُ الا تظن ان الله اعماك قصاصًا لك على ما اقترفتهُ في حق ابي الملك فقال لهُ اذا كانت المصائب قصاصًا للذنوب فالى مَ تنسبُ المصيبة التي حلّت بابيك فكأن الله سبحانهُ غضب عليهِ اكثر مما غضب عليَّ لاني انا عميت فقط اما هو فقطع رأسهُ . فقام اخو الملك مغضبًا ومضى واخبر اخاهُ بكلام ملتن وقال لهُ على م لا تقتل هذا الاعمى فقال لهُ الملك او رأيتهُ قال نعم فقال وكيف رأيتهُ قال هرمًا ضريرًا فقيرًا فقال اذا قتلناهُ نجونا من هذه المصائب . ولم يمضِ وقت طويل حتى توفاهُ الله فسار في جنازتهِ العلماء والعظماء وكان

على رؤوسهم الطير ووارروا في التراب جسمًا اخفى عليهِ الفقر والكبر ولكن عرائس افكارهم لم تزل تجلى في بلاد الانكليز وفي كل البلدان التي ترجمت اشعارهُ الى لغاتها ولها كل يوم عرس جديد. ورثاهُ الشاعر دريدن الانكليزي بما معناهُ

هوميرُ من آل يونان وفرجيلٌ ... من شعب رومان فاقا كلَّ من نظما
فاستنزفَ الدهرُ من بحرِ القريض وما ... يُرجى من الدهرِ شخصٌ نالكَ قِمَما
لكنهُ جمع الاثنين في رجلٍ ... فكان ملتن شخصٌ حيَّر النهما

المقابلة بينهما — اتفق هذان العظيمان في عمى البصر وحدة البصيرة وتوقد الذهن وسرعة الخاطر وحرية التفكير والمجاهرة بالرأي ولو خالف الجمهور وفي غير ذلك مما رأيتهُ في ترجمتيهما. واشعار الاول من طراز الاول في العربية وغيرها من اللغات السامية. واشعار الثاني من الطراز الاول في الانكليزية وغيرها من اللغات الآرية. وبينهما اختلاف جوهري في الوضع والاسلوب فان اشعار ابي العلاء جاءت فيها من كل فاكهة زوجان ولكنها منفصلة متفرقة وكل جنة بل كل دوحة قائمة بنفسها ومستقلة بغرسها فهي كامثال سليمان او كحكم لقمان او كالحكايات الادبية الموضوعة على لسان الحيوان او كالذور الذهب المنثورة بين الصخور او كجارة الماس المتفرقة بين الرمال. واما اشعار ملتن فكالمدن الكبيرة الكثيرة الاسواق والشوارع والبيوت والمصانع يتنقل فيها الغريب من حال الى حال فيرى كل يوم شيئًا جديدًا ويصادف في كل بيت معنى فريدًا. او كالبحار الواسعة الاطراف فيها الدر والمرجان والاسماك والحيتان والسفن الكبيرة والصغيرة والجزر المعمورة والمخمورة. او كسمآء السماء فيها الشموس والاقمار والنجوم والدراري والغيوم والسحب والرياح والعواصف. او كبساط الارض فيهِ الجبال والوهاد والسهول والانجاد والانهار والبحار والمغاني والقفار. او كالمكاتب الكبيرة الجامعة من نخب الكتب التاريخية والادبية والعلمية والعملية. فالذي يقرأ "الفردوس المفقود" مثلاً يطلع على اكثر معارف المتقدمين والمتاخرين حقيقيةً كانت او وهميةً منظومة الفرائد محبوكة الفلائد مكسوةً من البلاغة حللاً ومن النظم نسجًا وغزلاً. يرى فيهِ خطب الزواد ومؤامرات الاشرار وتعاليم الصالحين ومسامرات العاشقين وشرح مطامع الحروب ووقوع الخطوب وتلاقي الاحباء وتصافي الالباء ووصف الجبال والوهاد والسهول والانجاد والبحار والانهار والرياض والفراديس والملائكة والابالسة. وكل ذلك يتناظر بعضهُ بعضًا على احسن اسلوب حتى كأنَّ الذي يقرأهُ يقرأ ابلغ رواية غرامية او قصة فلسفية ضرب الخيال فيها اطنابهُ ونصب التصور عليها قبابهُ. ومع هذا البيان العظيم في بيتنا

الشاعرين ومقصدهما فقد اتفق خاطراهما في امور كثيرة كما سترى

قال ابو العلاء يصف انعكاس صورة الجمال والسماء ونجومها عن الماء

فاطمعنَ في اشباههنَ سوانطًا ... على الماء حتى كدنَ بلتطنَ بالبدرِ
فمدّت الى مثل السماء رقابها ... وعبّت قليلًا بين نسرٍ وفرقدِ

وقال ملتن بلسان حواء وقد رأت صورتها في الماء ايضًا نظمًا ما في هذين البيتين

جرى الى السهل ماء الكهف فانبسطتْ ... مرآتهُ فبدتْ مثلَ السماواتِ
فمتُ ارقبُها فقام يرقبني ... شخصٌ من الماء مثلي في الاشاراتِ

وقال ابو العلاء مشيرًا الى عماهُ

ويا اسبرة حجليها ارى سنهًا ... حملُ الحليِّ لمن اعيى عن النظرِ

وقال ملتن مخاطبًا النور ومشيرًا الى عماهُ

عبثًا نزورُ العين وهي كئيبةٌ ... تنفي لقاكَ ولاتَ حينَ لقاه

وقال ابو العلاء من نوع المجاز

اقبلوا حاملي الجداول في الآ ... غادِ مستبشرينَ بالغدرانِ

وقال ملتن من نوع الحقيقة في الخيل

تلعوا التلال بصخرها ورباها ... ونباتها ورموا بها الاعداء

وقال ابو العلاء مشيرًا الى التعوّد على المكاره

ولما أنْ تهجّمني مرادي ... جريتُ مع الزمان كما ارادا
وصيّرتُ الخطوب عليّ حتى ... كأني صرتُ اشخصها الردادا

وقال ملتن مشيرًا الى مثل ذلك

فتألفتْ نار العمى حتى كأننا ... خُلقنا لها بالطبع لا بالتطبُّعِ

وقال ابو العلاء مشيرًا الى ان المناصب محفوفة بالمخاطر

تُرقّى البدورُ النقصَ وهي اهلةٌ ... ويُدركها النقصان وهي كواملُ

وقال ملتن ما معناهُ

من يتولّى ارفعَ المناصبِ ... تناوبته اتعبُ المظاهبِ

وقال ابو العلاء في عدم استحسان جانب التأنس

فظنّ بساكن الاخوان سوءًا ... ولا تأمن على سرٍّ فؤادا

وقال ملتن في وجوب الحذر من المكايد التي لا يخلو منها احد حتى الحكماء

وكم من حكة بفضى أراها وسوء الظن برتدُّ في حماها

وامثال ذلك كثيرة في اقوال هذين الشاعرين وفي اقوال اكثر الشعراء المجيدين فنكتفي بما ذكرنا مثالاً لما لم يُذكر

شرائع الحرب واسباب السلم

ان الناس لا يزالون الى يومنا في زحام وصدام تتفاذفهم امواج الاهواء وتوغر صدورهم سود الضغائن فيحتكمون الى السيف وهو القاضي العدل ولو كان من اشد القضاة عتوًّا . والعاقل اذا تأمل في تمدُّن هذا العصر واتساع نطاق التجارة وانتشار لواء الحضارة وكثرة الفضلاء والبلغاء توقَّع ان يرى فيه دواء لداء المطامع ولجاماً لجماح الاهواء وان يجد الناس قد انزلوا السيف عن منصَّة القضاء وبوَّأوا العقل مكانه وتقاضوا اليه مرتين وانتدبوا الى حكمه صاغرين . والحال انه لا يرى لاوَّل وهلة ولا يسمع الاَّ مدافع تدوي وسيوفاً تلمع واساطيل تُبنى وجيوشاً تُجمَع كأنَّ البشر راجعون الى البداوة المحضة اذ يتجنَّد كل رجالهم ويشغلهم الرحلة والكرُّ عن الحلب والصر . على ان المتدبر يعلم ان وراء هذه الجيوش المعبأة والاساطيل المدرَّعة والاسلحة المحددة قد نصبت الرحمة عرشها وقام العقل خطيباً والعدل نبيًّا وصار غرض الدول الاوَّل تلافي الحروب ونزع اسبابها او تقصير مدتها وتخفيف اوصابها كما سيأتي مفصَّلاً . وكان الشروع في ذلك اثناء حرب القرم التي انتشبت بين الدولة العلية وحليفتها وبين دولة الروس

تأججت نيران هذه الحرب سنة ١٨٥٤ وانجلت عمَّا لا نظير له في الحروب السالفة من احترام حقوق الرعايا والرفق بالاسرى[1] والتسريح التجَّار ولو كانوا من المحاربين . فلما عقدت شروط الصلح في مدينة باريز صُرِّح فيها بوجوب الاحترام لحقوق الدول غير المشتبكة في الحرب وحقوق كل الرعايا غير المجندين ولو كانوا في دار الحرب . وامضى هذه المعاهدة نوَّاب انكلترا وبروسيا وتركيا وروسيا وسردينيا وفرنسا والنمسا وامضاها غيرهم من نواب الدول الكبيرة والصغيرة بعد ذلك

ثم التأم نوَّاب الدول الاوربية في مدينة جنوا لكي يسنوا نظاماً لمنع الدول المتحاربة عن استعمال الوسائل البربرية التي تعذب الناس وتضرُّهم اكثر مما تستدعيه مصلحة الحرب .

(١) وقد شاهدنا بعض الشوريين الذين كانوا حينئذٍ من جنود الدولة العلية وولعوا في أسر الروس فانهم لم يفتؤوا على الروسيين شاهرين سيوفهم والسوم واعتوا بهم مذلة اقامتهم في بلادهم ثم ردوهم الى وطنهم آمنين